المدينة باهلها : الموصل انموذجا

أ.د. مضر خليل عمر

زياراتي المكررة لمدينة الموصل ، وجامعتها بشكل خاص ، وما عرفته عن رجال من اهلها لهم باع طويل في خدمة العراق والدفاع عن امنه وارضه ، دفعني لكتابة هذا المقال . وحفزني ايضا ، اني كنت اعمل في شركة لانجاز مشروع الخطة الهيكلية لمحافظة نينوى ، قبيل اسقاطها عمدا ونكاية ، وما الاحظه حاليا من سواعد مشمرة للبناء والاعمار واعادة الهيبة للمحافظة و المدينة واهلها الكرام والحفاظ على تراثها العريق . ولعل لمقال ((الإبداع في الزمن و المجال للباحث Gunnar Tornqvist كونار تورنكفست)) الذي قام بدراسة سيرة (100) من العلماء الحاصلين على جائزة نوبل ، مؤشرا الجوانب الايجابية التي حفزتهم للتميز بين اقرانهم و على المستوى العالمي ايضا . انقل مقتطفات من ترجمتي للمقال الاصلي منشور في صفحتي الخاصة على الانترنيت https://www.muthar-alomar.com/?attachment_id=2444 .

منذ عام 1901 تمنح جائزة نوبل في ميادين الفيزياء و الكيمياء و الطب (أو علم وظائف الأعضاء) ، وفي الأدب . وهناك جائزة نوبل للسلام ، و منذ عام 1969 استحدثت جائزة خاصة للاقتصاد على ذكرى الفريد نوبل . وجميعها ، وصل عددها اكثر من 700 جائزة . ولأن بعضها منح مشتركة لأفراد عدة ، وخاصة خلال السنوات الراهنة ، فان عدد الممنوحين يفوق عدد الجوائز نفسها .

الظروف الأساسية للإبداع

بغض النظر عن كون الإبداع في تطوير التقنيات أو في الأبحاث أو في مختلف أنواع النشاطات الفنية ، فان العملية الإبداعية تضع طلبا خاصا على ما يحيط بها من بيئة . وجميع البيئات سواء أكانت جغرافية أم مؤسسية أو شبكات فلها إيجابياتها كما لها معوقاتها للإبداع . ومن السمات العامة و المميزة لمختلف هذه البيئات ، التي من اهتمامات هذا المقال :-

أ - كفاءة المعرفة وتقاليدها

النظرة الإجمالية لمختلف البيئات الإبداعية تشير إلى وجود خصائص في البيئة العمرانية تسهل عملية التجديد . فقد توفر هذه البيئات أماكن الاجتماعات و فرص الاتصالات . والأكثر أهمية إنها قد تجذب النخبة الذكية ، التي تضفي طلبات خاصة على الجيرة . وفي الوقت نفسه ، فإنها تركز على ان هؤلاء الأفراد الذين اصبحوا جزء من المبنى أو من بيئة المؤسسة أو العائدين إلى شبكة علاقات معينة فهم في الحقيقة من المتطلبات المسبقة لعملية الإبداع .

ب - تراكم رأسمال و البيئة العمرانية

والبيئة العمرانية قد تأخذ أهمية خلال عملية التجديد . ففي دراسات تخطيط المدن ، هناك إشارات إلى ان بيئات معينة تعزز الإبداع اكثر من غيرها . فمثلا ، فان المدن الكثيفة السكان في القرون الوسطى و عصر النهضة ، بشوارعها و ساحاتها المزدحمة بحياتها الفلكلورية لعلها كانت الأكثر بيئة تحفيزية من المدن الحديثة التي بنيت لتستوعب حركة السيارات . فحتى معمار مباني المدينة ، وكذلك الديكورات الداخلية و الألوان يعتقد بان لها أهمية خاصة في الإبداع .

ج - الاتصالات

التكتلات الجغرافية هي واحدة من ابرز المظاهر في الجغرافيا الاقتصادية في الألفية الجديدة . ونتيجة للتقسيم التخصصي العالي في قوة العمل في البحث وفي التنمية فقد تولدت حاجة متزايدة للتعاون بين الأطراف المختلفة . وفي هذه الأجواء تلعب العلاقات الشخصية دورا متميزا في العصر الراهن .

توضح الدراسات انه من الصعب جدا الشعور ببناء البيئة الإبداعية . وبالمقابل ، فانه من السهل تدمير مثل هذه البيئات من خلال الضوابط و السيطرات التي تفرض عليها . وبالمنظور التاريخي فان العديد

من العمليات للتجديد الشامل قد جاءت معارضة لتوجهات المؤسسات و المنظمات . ويبدو انه من الصعب بشكل خاص الحصول على تعاطف مع الأفكار الجديدة ضمن المؤسسات الكبيرة .

وبالنسبة للعديد من العلماء المميزين كان للمدرسة أهمية خاصة في حياتهم . فهم يتحدثون بحرارة عن كفاءة مدرسيهم الذين أيقظوا الاهتمامات فيهم وأثروا على تركيزهم في دراستهم اللاحقة . وكانوا يتحدثون عن المدارس بتخصص معين و طلب محدد ، لذا تحدوا قدرات الطلبة الآخرين بما فيهم الممنوحين هدايا و جوائز في تلك المدارس . وهنا أيضا يوجد مثال جيد من المجر، و كذلك من ألمانيا و فرنسا وبريطانيا .

و ترينا بعض السير الذاتية كيف ان نيلز بوهر سافر من ألمانيا بالقطار خلال عشرينات وثلاثينات القرن الماضي . حيث كان يلتقي مع زملاءه و تلامذته في المحطات عندما يعلمون بسفره . وقد تستمر المناقشات في القطار ، وحيثما يسمح الوقت و المجال . وخلال هذه السنوات التقى بوهر بالعديد من الفيزيائيين و الكيمائيين الذي ذهبوا إلى كوبنهاكن للقاءه ، وقضوا بعض الوقت مع البيئة التي تحيط به .

مادة هذا المقال هي تفحص مختلف البيئات من اجل تحديد الظروف الخارجية الأساسية للإبداع (العلاقات في مختلف الأزمنة و مختلف البيئات المعززة أو تلك التي تخفي في طياتها عمليات الإبداع) . والبيئات التي عرضت كانت لمختلف العصور التاريخية و مختلف الأشكال . وقد وفرت هيكل عمل لعمليات الإبداع و التجديد في مختلف الميادين المنوعة مثل الأدب ، المعمار ، الفن ، الموسيقى ، الفلسفة ، التقنيات و العلوم . وعلى الرغم من الاختلافات بينها ، فان الأمثلة المنوعة أكدت **وجود خصائص عامة مشتركة بينها** .

فالأشخاص ذوي الخبرة المميزة و الطاقة الإبداعية هم المطلب الرئيس للابتكار و التجديد الشامل . ومع بعض الاستثناءات ، فان الكفاءة مطلوبة للبناء من كم هائل من المعرفة التقليدية و الخبرة الكبيرة . ومع هذا فان مختلف أشكال الفن وميادين الأبحاث قد ارتبطت بأماكن معينة وبيئات مؤسساتية محددة ، والعديد من حملة هذه التقاليد غير مستقرين مكانيا .

لذا فان بيئة الإبداع يجب ان ينظر لها مبدأيا كأماكن و مجاميع جذبت الكفاءات ضمن تخصص علمي محدد . وتأسست هذه التقاليد ، جزئيا ، نتيجة جذب الأماكن و المؤسسات ذاتها لأشخاص معينين ولفترة زمنية طويلة . وفي حالات محددة ، فقد احتاجت قوة الجذب هذه حوافز و دفعا من أشخاص من خارج الميدان التخصصي ، وكذلك المفكرين . وفي حالات أخرى ، فان قوة الجذب قد تأثرت بالبيئة حيث الفائض الاقتصادي و ظروف العمل الحازمة . وفي الأماكن حيث تتوافق هذه الشؤون فان الجذب يكون قويا بشكل خاص .

الاتصالات الحميمة بين الأفراد و مجتمعات الكفاءات خاصية مميزة لجميع البيئات ، حيث تعمل على تبني التجديد و عمليات الإبداع . وهذا صحيح في البيئة الجغرافية ، وكذلك في البيئات المؤسسية . وبطبيعتها فان العمليات الإبداعية تضم عناصر مميزة من حالة اللااستقرار ، و اللاتوقع و المفاجئة . ولهذا السبب ، فان المناقشات و اللقاءات ذات أهمية ستراتيجية . وعبر التاريخ ، فان بيئة الإبداع قد احتوت أماكن سهلت الاجتماعات واللقاءات . ففي البيئات التي يكون فيها تبادل المعلومات الحر مقيدا ، فان الإبداع يتناقص .

ان التعدد و التنوع يعززان العمليات الإبداعية ، بينما التشابه و التوحيد النسقي و التجانس لا يعملان ذلك . والعديد من الأمثلة الموثقة قد أعطت انطباعا خاصا بان بيئة الإبداع في بعض الأوقات كانت عبارة عن فوضى . والملاحظة الهامة التي أخذت عن العملية الإبداعية و التجديد الشامل بأنهما يبدأن حيثما تتطابق الكفاءة المميزة و صلات حميمة مع حالة اللااستقرار و اللاضمان . وهناك الكثير عن تضمين كل عملية إبداعية ، وسواء أكانت معنية بالابتكار التقني أو تغيير جذري في البحث أو فن جديد ، تضمينها لما يمكن تسميته باللااستقرار البنيوي . و هذا اللااستقرار البنيوي يسهل عملية خروج الأفكار عن النمط الموجود و الضوابط الصارمة المحيطة بها .

تفحصت هذه المقالة الانتقال الجغرافي و سفر الأشخاص المبدعين ، في الوقت الذي تساءلت عن البيئات الشخصية المميزة كحاوية للعملية الإبداعية . والبيئة التي عرفت بها إمكانات الشخص ليست

بالضرورة ذاتها التي قدمت الظروف المفضلة للتجديد الشامل . يضاف إلى ذلك ، ركزت المقالة على تفحص الانتقال بين مختلف البيئات و مدى أثرها على الأفراد المبدعين وتطوير مسار حياتهم .

ومن اجل الإجابة عن هذه التســـاؤلات و الحصـــول على فهم عميق للعمليات الإبداعية ، فقد أعطى اهتمام خاص لبعض الأشـــخاص المبدعين المعروفين جيدا و مســـارات حياتهم . وقد اختيروا من بين مئات الأشخاص الذين نالوا جائزة نوبل في مختلف العلوم و عبر المائة سنة الماضية . وركزت الخاتمة على أسس الخروج عن المألوف في البحث كمثال لنشاط إبداعي . وهناك ملاحظات عديدة جمعت من سير حياة المبدعين التي استندت الدراسة عليها .

الظاهرة المميزة في مختلف الســـير الذاتية تركيزها على أهمية البيت و المدرســـة في إيقاض و تطوير الطاقة الإبداعية عند الأشـــخاص . وبتتبع حياة مبدعين فرادا و ما توحيه ، فهناك حالات عامة تؤثر على جغرافية الإبداع . وهي : العلاقات حيث أدركتها جيدا الدراسات السابقة عن البيئات . و المعطى الجديد المضاف هو الفائض الاقتصادي ، و أهمية سماح البيئات المختلفة للبدائل و الفرص للخروج عن المألوف في القيم و أنماط الأفكار . و الملاحظة الأخرى **ان المناقشات و اللقاءات تسمح بتجمع الأشخاص المبدعين مع بعض و تشكيل أفكارا يمكن ان تقود إلى تجديد شامل** . و بالختام فهناك سبب وجيه لتكرار القول : **كيف ان عددا قليلا من مسارات حياة أشخاص يعكس التغيرات الجذرية في المجتمع الأكبر .**

الموصل انموذجا

تضم نينوى ، ومركزها الاداري ، الموصل ، تنوعا بشريا فريدا من الطوائف و القوميات والاديان ، فهي كما عبر عنها البعض فسيفساء نادرة الوجود . يعني هذا وجود تنوعا ثقافيا – حضاريا يحفز البعض (ان لم يكن الجميع) للتنافس في مختلف مجالات الحياة ، الدراسية و المهنية على وجه الخصوص . يضاف الى ذلك صرامة الضوابط العائلية و المدرسية و الالتزام بها ، لدرجة التقديس . بهذه الظروف ينشأ الجيل معتمدا على نفسه ، واقفا على قدميه ، له طموحه و هدفه الواضح في الحياة ، يعمل بشكل دأوب لبناء مستقبله ، يتحدى الصعاب ، فلا تلين عريكته . وقد اثمرت هذه البيئة رجالا (ونساء) عبر تاريخ العراق المعاصر ، لهم مكانتهم المهنية حيثما كلفوا بمهام خارج نينوى : في الجيش و الشرطة و التعليم العالي والطب و الهندسة ، و مؤسسات الدولة الخدمية الاخرى . وكانت لهم مساهمات وطنية – مهنية مشهود لهم بها ، و يشار اليهم بالبنان ، وحضي روادها بالاحترام والتقدير و التكريم .

لا يحدث التقدم بمسار متصاعد سلسا ، فدائما هناك مطبات و وقفات نقدية- تقويمية و تعديل مسار . فطالما جذوة الحياة مازالت متقدة ، وهناك بذرة خير وارادة صلبة لمواصلة المسير و تحدي الصعاب و مواجهة اعداء التطور والانسانية ، فحتما وباذن الله يتحقق التقدم والازدهار . فمن نال جائزة نوبل للسلام (المذكورين في المقال المشار اليه انفا) عانى من الصراع الداخلي والخارجي ، وقد تتلمذ في مؤسسات تعليمية و بحثية صعبة المراس ، وتحدى نفسه اولا و الاخرين ثانيا و انشأ ما يوفر له من بيئة للعطاء العلمي الرصين و يحقق التقدم العلمي له و للعلم و الانسانية جميعا .

وعلى الرغم من ان التنوع (بكل انواعه – اجتماعي ، اقتصادي ، سياسي ، طبيعي) ايجابي في الكثير والكثير من الجوانب والمعطيات الحياتية اليومية ، وفي بناء الاوطان ، الا انه يعد ثغرة ينفذ من خلالها شذاذ الافاق المغرضين بنوايا دنيئة للتفرقة و التجزءة و اثارة المشاكل و العراقيل امام بناء اوطان مستقلة ومستقرة . ويكون ذلك مؤثرا عند سيادة التخلف الفكري في المجتمع ، من خلال اثارة النعرات الطائفية والعرقية و الدينية و السياسية . وهذا ما دمر بلدنا منذ خمسينيات القرن الماضي والى يومنا هذا .

املي ان تشفى نينوى من الجراح التي اصابتها ، وان يعي ابنائها الدروس والعبر التي مروا بها نتيجة استغلال التنوع الاجتماعي واثارة التفرقة بين ابناء المحافظة . وان تبقى شعلة الحضارة الانسانية والتقدم العلمي منيرة اجواء المحافظة بكامل ارجائها ومفاصلها . ان الحفاظ على تراث الموصل خاصة ، ونينوى عامة لهو دليل على ربط الحاضر بالماضي لبناء مستقبل يستند على جذور واسس رصينة لا تهزها الرياح .

واعادة البناء بشكل يثير الاعجاب و الغبطة مقارنة بمحافظات العراق الاخرى التي اصابها الدمار يشهد لها بارادة الحياة الحرة الكريمة . لنينوى مستقبل باهر باذنه تعالى طالما حافظت على روحية النصر و الوحدة الوطنية ....